المعمرون والوصايا

لأبي حاتم السجستاني

٢٥٠هـ — ٨٦٤م

تحقيق

عبد المنعم عامر

١٩٦١

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

حفلت مجالس الخلفاء فى العصر العباسى (١٣٢ : ٦٥٦ هـ ـ ٧٤٩ : ١٢٥٨ م) بطائفة كبيرة من الرواد الأوائل فى رواية الأدب العربى ، الذين يجتمعون فيسمرون به فى مجالسهم ، ويتذاكرون على صفحته ماضى آبائهم وأجدادهم ، فيأخذون منه الحكمة والعلم ، ويستنُّون هديه فى الإبانة والقول، ويجد فيه الخلفاء سير من سبقوهم فى الولاية على الناس مسطورة بالروح العربية ، معلمة بتلك الألوان التى أضفاها الشعراء على الملوك والأمراء والحاكمين .

ولقد امتاز العصر العباسى بأنه العصر الذى عنى فيه الأدباء بتدوين اللغة العربية ، آدابها وألفاظها ، شعرها ونثرها ، حفاظا على التراث العربى ، وتسجيلا للغة العربية التى سادت الشرق الأدنى والأقصى وبلاد المغرب ، وسيطرت على عقول أبناء الدول التى خضعت لحكم العرب .

وقد ظهرت فى هذا العصر مدارس عديدة تضمها مساجد البصرة والكوفة ، وينتظم فيها علماء اللغة والأدب من العرب والمولدين الذين شاركوا فى فن التأليف والنقد ، وأقاموا الإنتاج الأدبى على الأسس العلمية التى تحولت بها الدراسات العربية من نظريات بدائية إلى علوم تامة وقواعد منظمة ، فصار النقد الأدبى قائما على قوانين ومعايير معلومة بدل أن كان متمشيا وفق الذوق الفطرى والأحاسيس الفردية .

وكان طبيعيا أن تقوم إلى جانب هذه النهضة الأدبية والتأليفية سوق للوراقة ، تضم الكتب فى أشكالها المختلفة ، وتعنى بتسجيل الرواية فى ألوانها العديدة ؛ وما كانت هذه الوراقة مقصورة على بيع الكتب للراغبين فى حيازتها ، وإنما كانت محالها مراكز ثقافية تضم كل الأعمال التى تسبق حياة الكتاب من رواية ونسخ ، وتقوم فيها الخدمة المكتبية غير الموقوتة بزمن فى ليل أو نهار على خير ما تؤدى المكتبات رسالتها ؛ وكان الوراقون ذوى أدب وعلم وذوق فنى، يهرع إليهم المتأدبون

فيأنسون بهم ويجدون عندهم الهداية لخير ما يعرفون ؛ وقد تخرج فى دكاكين الوراقة علماء وأدباء قادوا النهضة الفكرية فى العالم العربى ، وبرزت آثارهم بين التراث الثقافى مراجع أولى للدارسين .

* * *

ومن بين هؤلاء الوراقين سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشيمى بن القاسم ، الإمام أبو حاتم السجستانى ، البصرى ، الكوفى ، المقرى ، صاحب كتاب المعمرين ، وكتاب الوصايا اللذين أنشرهما فى هذه الطبعة ، فقد كان جمّاعة للكتب ، يتجر فيها ، وكان إماما فى علوم اللغة والأدب ، والقرآن والشعر ، وصاحب مؤلفات عديدة ، ذكرها ابن شاكر المؤرخ فى كتابه « عيون الأخبار » ـ مخطوطة رقم ١٤٩٧ تاريخ بدار الكتب المصرية ـ فقال :

« وله كتاب إعراب القرآن ، وكتاب ما يلحن فيه العامة ، وكتاب المقصور والممدود ، وكتاب المقاطع والمبادئ ، وكتاب القراءات ، وكتاب الفصاحة ، وكتاب الوحوش ، وكتاب اختلاف المصاحف ، وكتاب الطير ، وكتاب النخلة[1] ، وكتاب القسى والنبال والسهام ، وكتاب السيوف والرماح والدرع والفرس ، وكتاب الحشرات ، وكتاب الهجاء ، وكتاب خلق الإنسان ، وكتاب الإدغام ، وكتاب اللبن والحليب ، وكتاب الكرم ، وكتاب الشتاء والصيف ، وكتاب النحل والعسل ، وكتاب الإبل ، وكتاب العشب ، وكتاب الخصب والقحط ، وكتاب الأضداد ، وغير ذلك » .

وقد ولد أبو حاتم السجستانى فى وقت ما حوالى سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م) ومات فى سنة ٢٤٨ هـ ، أو سنة ٢٥٠ هـ ، أو سنة ٢٥٤ هـ على ما عليه الخلاف بين الرواة ؛ وبين هذين الزمنين ، المولد والوفاة ، عاش أبو حاتم السجستانى حياة طويلة ، نشأ فيها تلميذا على الأخفش ، إمام اللغة ، فقرأ عليه كتاب سيبويه مرتين ؛ وجلس إلى العلماء

(١) طبع فى بالرمو بصقلية سنة ١٨٧٣ ، وقد نشره الأستاذ « لاغومينا » ، ومعه ملحوظات باللغة الإيطالية .

غيره، وروى عنهم، أمثال أبى عبيدة ، وأبى زيد ، والأصمعى ، وعمر بن كركرة ، وروح بن عبادة ؛ ثم صار أستاذا يحضر حلقته فى مسجد البصرة المتأدبون ، أمثال أبى العباس المبرد ، العالم اللغوى المشهور ، وقد روى عنه أبو بكر بن دريد عالم اللغة.

ويروى الإمام العالم جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١٠ ه (١٥٠٤ م) فى كتابه « بغية الرواة » صحيفة ٢٦٥ من الطبعة الأولى لمطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ه أن أبا حاتم السجستانى دخل بغداد ، فسئل عن قوله تعالى : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا » . ما يقال منه للواحد ؟

فقال : قِ .

فقال : فالاثنين ؟

فقال : قِيَا .

قال : فالجمع ؟

قال : قُوا .

قال : فاجمع لى الثلاثة .

قال : قِ ، قِيَا ، قُوا .

قال : وفى ناحية من المسجد رجل جالس ، معه قماش ، فقال لواحد : احتفظ بثيابى حتى أجىء .

ومضى إلى صاحب الشرطة ، فقال : إنى ظفرت بقوم زنادقة ، يقرءون القرآن على صياح الديك .

قال: فما شعرنا حتى هجم علينا الأعوان والشرطة، فأخذونا، وأحضرونا مجلس صاحب الشرطة ، فسألنا ، فتقدمت إليه وأعلمته الخبر .

وقد اجتمع خلق من خلق الله ينظرون ما يكون .

فعنّفنى ، وعذلنى ، وقال : مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا ؟ !

وعمد إلى أصحابى ، فضربهم عشرة ، عشرة ، وقال : لا تعودوا إلى مثل هذا .

فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعا ، ولم يقم ببغداد ، ولم يأخذ عنه أهلها .

وترك أبو حاتم النحو بعد اعتنائه به حتى كأنه نسيه ، وكان إذا اجتمع بالمازنى فى دار عيسى بن جعفر الهاشمى تشاغل وبادر بالخروج خوف أن يسأله مسألة فى النحو.

وكان أبو حاتم أعلم الناس بالعروض واستخراج المعمّى ، ويعد من الشعراء ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وروى له النسائى فى سننه ، والبزار فى مسنده .

* * *

ويروى المؤرخون فى كتبهم، المخطوط منها والمطبوع، شعراً لأبى حاتم السجستانى قاله فى تلميذه أبى العباس المبرد وهو غلام وسيم ، وقد كان يلازم القراءة عليه .

فذكر ابن شاكر فى كتاب عيون الأخبار (مخطوط) أبياتا للسجستانى فى المبرد، منها:

نَفْسِي فِدَاكَ يَا أَبَا الْعَبَّاسِ ، جَلَّ بِكَ اعْتِصَامِي

فَارْحَمْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ نَزْرُ الْكَرَى بَادِي السَّقَامِ

وَإِنَّكَ مَا دُونَ الْحَرَا مِ ، فَلَيْسَ يُرْغَبُ فِي الْحَرَامِ

وجاء فى كتاب بغية الوعاة لجلال الدين السيوطى أبيات أخرى منسوبة إلى السجستانى قالها فى المبرد ، منها :

أَبْرَزُوا وَجْهَكَ الْجَمِيلَ ، وَلَامُوا مَنِ افْتَتَنْ

لَوْ أَرَادُوا صِيَانَتِي سَتَرُوا وَجْهَكَ الْحَسَنْ

وهذا اللون من الشعر كان قد شاع ذكره فى العصر العباسى .

* * *

ويعتبر كتاب « المعمرين » من أهم الكتب التى خلفها أبو حاتم السجستانى ، فالكتاب فى مادته الفنية لون غير معروف فى أغراض الشعر الجاهلى ، وهو جملة مختارة من الشعر العربى القديم قام بجمعها أبو حاتم من بطون الكتب القديمة ، المعروفة فى زمانه ، وقد صار أمرها إلينا مجهولا ، وتمثل هذه المجموعات الشعرية فنا من الشعر الجاهلى ، وصف فيه الطاعنون فى السن ما يلقونه من طول حياتهم ، فرسموا بين سطوره أجسامهم وقد شفها الكبر ، وأحلامهم وقد ذهب بها الضعف ، وهم

ينظرون إلى ماوراءهم فيذكرون أيامهم الخوالى، ويندبون فتوتهم، ونشاطهم، وسيادتهم فى قومهم ، كل هذا فى تصوير رائع من الفن الواقعى ، والأسلوب الجميل .

وإن القارئ لكتب الأنساب ، والمطلع فى كتب الأدب المراجع ليرى فيها كثيراً من الشعر لمعمّرين ذكرهم أبو حاتم فى كتابه ، وهى منبثة فى ثنايا الأخبار الأدبية الطوال ، ويقرأ فيها أيضا أخبارا أخرى لمعمرين لم يذكرهم السجستانى فى كتابه ، وقد روى عنهم المؤرخون من بعده ، ولكن كتاب المعمرين يعتبر بحق الكتاب الأول الذى انفردت مادته بجمع جملة كبيرة من أقوال المعمرين ، وبخاصة أولئك الذين عاشوا فى العصر الجاهلى وفى عصر صدر الإسلام ، فكلّ ما رواه أبو حاتم فى كتابه قد ورد فى ثنايا الكتب ، وليس كل ما ورد فى الكتب مذكورا فى كتاب المعمرين ، وهذا هو الدليل على سبق أبى حاتم فى الاختيار والتعليق .

***

وإنّه لما يلفت نظر دارس كتاب المعمرين أن يجد رواية الأخبار فى جملتها منسوبة إلى « أبى روق » تلميذ أبى حاتم وهو الذى نقلها عن أستاذه كما سمعها وكما كتبها ، ويذكر «أبو روق» النصّ ، ويقول قبله «حدثنا أبو حاتم» ، وفى بعض الأحيان يضيف أبو روق نصوصا أخرى من مراجع ثانية ، كالحديث عن أبى عمرو الخلّاد ، وعن الرياشى . وعند ما يعود « أبو روق » إلى نص « أبى حاتم » يقول « أبو روق » « قال أبو حاتم » ، على أن « أبا روق » لا يلتزم هذه الطريقة فى رواية بعض النصوص ، مثل الكلام عن ذى الإصبع الشاعر ، فإن القارئ لا يستطيع أن يستبين حدود ما أضافه أبو روق مما ذكره أبو حاتم ، ولعل هذه الإضافة لا تزيد عن نهاية الأبيات التى رواها لذى الإصبع .

وقد عمد أبو روق إلى بعض النصوص التى رواها عن أبى حاتم ، فوكّدها بروايات أخرى كالحديث الذى رواه أبو حاتم عن الرياشى ، عن الهيثم بن الربيع ، عن الشعبى لما أرسل إليه عبد الملك بن مروان وهو شاكٍ ؛ فقد أكد نصه أبو روق بروايته عن أبى الخطاب ، زياد بن يحي الحسّانىّ .

وأبو روق راوى الكتاب هو أحمد بن محمد بن بكر الهزّانى ، وقد ورد اسمه مكتوبا بالكامل فى كتاب المعمرين أثناء الحديث عن نصر بن الحجاج بن عِلاط السُّلَمِىّ ولقائه معاوية بن سفيان «صحيفة ١٠١» ، وليس هو أباروق ، عطيّة بن الحارث ، المفسِّر الذى ذكره ابن دريد فى كتابه « الاشتقاق » ، وذكره الطبرى فى الجزء الأول من تفسيره كثيرا ، فى صحيفة ١ ، ٤١ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٨٦ ، وإنما هو الذى ذكره جلال الدين السيوطى فى كتابه المزهر ، صحيفة ٢٠٤ من الجزء الثانى ، باسم أبى روق الهمدانى ، وقد أخطأ الناسخ فى كتابة كلمة «الهزّانى» فقرئت من بعده «الهمدانى».

على أن أصحاب كتب التراجم لم يذكروا شيئاً فى كتبهم عن أبى روق الهزّانى راوى كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى ، ويظهر أن « أبا روق » لم يكن فى عداد العلماء المشهورين المعروفين الذين زخر بهم العصر العباسى ؛ هذا إلى أن إهمال « كتاب المعمرين » وعدم استعماله فى الزمن القديم كان له أثره فى اختفاء اسم « أبى روق » من كتب الأدب العربى . وعلى أى حال فإن أبا روق لم يكن إلا راوية للكتاب عن أبى حاتم السجستانى ، ولم يكن مؤلفا له .

وقد ورد ذكر كتاب المعمرين فى كتاب « الغرر والدرر » للعلامة العلوىّ ، أبى القاسم على بن الحسن الشريف المرتضى ، المتوفى سنة ٤٣٦ ه ، وفى كتاب الإصابة لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ ه ، وفى كتاب خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ، عالم القرن الحادى عشر ، وفى كتب أخرى غيرها منسوبا إلى أبى حاتم السجستانى . وقد أشار ابن دريد فى كتابه الاشتقاق إلى كتاب المعمرين ، وروى عنه جملة من أخباره .

وإن القارئ لسير المعمرين وأخبارهم وأشعارهم التى وردت فى « كتاب المعمرين » ليدرك أن الشعر فى غالبه يرجع إلى قبائل جنوب بلاد الجزيرة العربية (الحميريين) لفظا ، ومعنى ، ونظما ، وأنه يعود إلى عصر الجاهلية حقيقة ، وليس يبعيد أن يكون بعض هذا الشعر منظوما فى العصر العباسى ، وقد نسب إلى العصر الجاهلى زيفا وبهتانا من

خلف الأحمر ، أو من محمد بن سلام ، أو من مسافع ، أو من فالج بن حلاوة، كما يذهب بعض النقاد للشعر الجاهلى اعتمادا على المقاييس النقدية التى تمتاز بها العصور الأدبية ، ولكن هذا التشكيك بعيد الاحتمال فيما رواه أبو حاتم ، فهذا اللون من الشعر يمثل البيئة الجاهلية تمثيلا صادقا ، ويصور الحياة البدوية تصويرا حقيقيا ، وقد كان معروفا بين الأغراض الشعرية ، وكان له حظ وافر بين أبواب الأدب العربى .

وقد نشر المستشرق الألمانى « نولدكه » أبياتا من هذا الشعر الجاهلى عن المعمّرين لعروة بن الورد ، وعمرو بن قميئة ، وسلام بن الجندل ، وهم يصفون الشيب ، ويشكون من طول الحياة ، وجاء فى كتاب الأغانى صحيفة ٩٣،٦٩ من الجزء التاسع عشر شعرا فى هذا المعنى لمقنّع الكندى، ومساور بن هند، ومخضرم ربيعة ابن مقرون، وجعْد المحاربى من شعراء العصر الأموى ، وكلهم يشكون طول الحياة ، ويتحسرون على الأيام الخوالى.

***

وليس هناك شك فى نسبة كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى ، فإن الدراسة الشكلية للمخطوطة الأولى التى قام بدراستها المستشرق الألمانى جولدز هير Ignaz Goldziher تؤكد صحة هذه النسبة ، وقد نشر هذا المستشرق دراسته فى سنة ١٨٩٩م بعد أن حصل على أقدم نسخة معروفة لمخطوطات كتاب المعمرين ، وهى النسخة الموجودة بمكتبة جامعة كمبريدج تحت رقم Q 9 No 285 ، فذكر أن شواهد الخط ترجع إلى القرن الرابع الهجرى حرفا ، وقلما ، وأن صحيفة العنوان تحمل سماعا مؤرخا فى سنة ٤٢٨هـ مكتوبا بخط مخالف لخط متن الكتاب ، كتبه أحد القارئين ، وتحوى صحيفة العنوان كذلك على تأكيد نسبة الكتاب لصاحبه محرّر بخط العلامة شهاب الدين الخفاجى، المتوفى بسنة ١٠٦٩هـ ، وآخر بخط عبدالقادر البغدادى ، ونصه :

« أبو روق ينقل فى هذا الكتاب عن أبى حاتم ، ويغلطه فى أماكن كثيرة ، فالظاهر أنه تأليف أبى روق ، والله أعلم بالصواب ، وقد ظهر فيما بعد أن أبا روق راوى الكتاب عن أبى حاتم» .

هذا إلى أن الأصل فى حقائق الأمور هو واقعها ، وأن الواقع هو الصواب مالم يقم دليل علمى على خطئه ، وليس هناك من واقع أمر كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى مايقوم معه الشك فى صحة الكتاب ، أوفى صحة نسبته لصاحبه .

* * *

وإن عناية أبى حاتم السجستانى بجمع أخبار المعمرين لابد أن تكون قد وانته فى سن بعد السبعين ، وهذه العناية تصور إحساسا داخليا شعر به السجستانى وتمكن من نفسه بعد أن صار من المعمرين ، وأصابه من الكبر ما أصابهم ، فإذا به يعرض أحاسيسه ، وقد عمّر نحو التسعين عاما ، بلغة غيره من المعمرين الذين سبقوه منظومة فى كتاب المعمرين ، فما عرف أبو حاتم السجستانى فى زمن فتوته العقلية إلا بأنه العالم بمسائل الفقه والحديث .

وإنه لما لا شك فيه أن العمر العقلى للإنسان يلعب دورا هاما فى اتجاهاته نحو فنون الحياة الثقافية ، فالعمر العقلى يولد صغيرا كما يولد الإنسان صغيرا ، فيكون نشاطه غريزيا محبا للاستطلاع والمعرفة ، كما يكون الطفل تماما، ثم يكبر العقل شيئافشيئا فيكبر معه الذوق الثقافى والفنى منتهجا السبيل المعاشى والاجتماعى للإنسان، وتتشعب بالناس بعد هذا أذواقهم وميولهم فى حياتهم نحوالآداب وفنونها ، فالإنسان فى شبابه يعشق الجمال الجنسى والطبيعى ، والأديب فى نشاطه العقلى يتذوق الجمال ويصوره فى أساليب الغزل والوصف ، فإذا بلغ العتى من الكبر نحامناحى أخرى من ألوان التعبير، وقل أن يتغزل الشاعر الهرم إلا أن يكون غزله ذلك الغزل الروحى الذى يتخذه وصلة إلى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام أو سبيلا غرض من الأغراض الدينية .

كذلك كان شأن أبى حاتم السجستانى ، وكان شأن نشاطه العقلى ، فهو فى فتوة حياته عالم ومحدث ، يعنى بما يعنى به العلماء فى عصره ، قراءة وتأليفا ، وهو فى شيخوخته عجوز أقعده الكبر ، فضعف عقله ، وإذا إنتاجه الأدبى يتمثل فى تلك المختارات التى حفظها الرواة ، أو تضمنتها بطون الكتب المعروفة فى عصره لأولئك الشيوخ الذين

أفناهم طول العمر ، فانطلقت ألسنتهم بالشعر ، يضمنونه شكواهم من الحياة وسوء مصيرهم فيها ، ويذكرون أنهم قد صاروا همَلا فى البيوت والأكواخ ، يحملون كما تحمل الأمتعة ، ويجهدون أهلهم بطول مكثهم وعدم مقدرتهم على مسايرة الحياة المعاشية وأحوالها ، فهم المعمرون .

* * *

وإن كلمة « معمر » تعنى الرجل الذى طال عمره ، وقد صارت اصطلاحا لغويا ، يفسر مداه الشعراء الجاهليون فى قولهم :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُوَكَّلُ بالصِّبَا ... فِيمَ ابْنُ سَبْعِينَ الْمُعَمَّرُ مِنْ دَدِ

وَإِنَّ امْرَءًا قَدْ سَارَ سَبْعِينَ حِجَّةً ... إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وِرْدِهِ لَقَرِينُ

فَمَنْ يَرْحَلْ إِلَى السَّبْعِينَ عَامًا ... فَمُعْتَرَكُ الْمَنُونِ لَهُ طَرِيقُ

وروى الترمذى[1] عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين » . وذكر البيضاوى هذا الحديث فى صحيفة ١٥٤ من كتابه .

وقال بعضهم[2] : نجد فى زبور داود ، صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليه ، من بلغ السبعين اشتكى من غير علة . .

ومما نزّل الله على المسيح فى الإنجيل : « شوّقناكم فلم تشتاقوا ، ونُحْنا لكم فلم تبكوا ، ياصاحب الخمسين ، ملقدمت وما أخرت ؟ ياصاحب الستين قد دنا حصادُك ؛ ياصاحب السبعين ، هَلُمّ إلى الحساب » .

فمن بلغ سن السبعين فهو معمر ، ولكن العرب لاتعد معمرا إلا من عاش مائة سنة وستا وعشرين سنة فصاعدا ، وهؤلاء المعمرون الذين روى أخبارهم أبو حاتم السجستانى قد بلغوا فى روايته أعمارا تتراوح بين عشرين ومائة وبين مائتين .

ولذا فإن القارئ لأخبار هؤلاء المعمرين يستوقفه كثيرا تلك الأعمار الخيالية .

(١) الجزء الثانى صحيفة ٥٣ من مخطوطة كتابه المحفوظة بخزانة الكتب بليدن .

(٢) أنظر كتاب البيان والتبيين للجاحظ ـ الجزء الثانى صفحة ٩٦ .

غير المألوفة ، وهى وإن كانت غير مستغربة بين أقوام يعيشون عيشة فطرية طبيعية ، فيحدث أن يعمر منهم أناس على فترات من الزمن سنين طويلة إلا أن العلم الحديث له اعتباره فى الحكم على رواية السجستانى عن أعمار هؤلاء المعمرين .

وإنه من المعروف علميا أن المناخ له أثره فى حياة الناس طولا وقصرا ، وأن أطول الناس أعمارا هم سكان البلاد الباردة ، وأقصرهم أعمارا هم سكان البلاد الحارة ، وإن المعمرين العرب الذين روى لهم أبو حاتم فى كتابه المعمرين ليسوا من سكان البلاد الباردة ، فهم إذن من ذوى الأعمار القصيرة التى لا تمتد إلى نحو مما ذكره أبو حاتم ، وإن كتب السير والتراجم والتاريخ ، قديمها وحديثها لا تصل أعمار الناس المذكورين فى تواريخها إلى تلك الحدود التى رواها السجستانى .

وعلى هـذا فإن تحديد العمر كما ذكره أبو حاتم فى كتاب المعمرين لا يمثل واقع العدد بقدر ما يمثل طول الأبد ، وهذا الإطلاق كان معروفا عند العرب قبل التاريخ الإسلامى ، وهو الذى يتفق مع مأثورهم فى قصصهم وفى سير أبطالهم ، التى لعبت فيها الأخيلة دورا هاما فى تحديد الأعمار .

ومن ذلك ما يروى فى سيرة « عنترة بن شداد » عن « فارس بهلول » الذى بلغ من العمر ما ينوف على ثلاثمائة وستين سنة ، وسمى لذلك « أبو القرون » .

وما روى فى التاريخ العربى القـديم من أساطير نسجها خيال الرواة حول عمرو ابن تميم بن مرة ، وقد بلغ من العمر ثلاثمائة وثمانين سـنة[1] ، وسعد بن زيد مناة من كبار بنى تميم المعمرين ، وعمر بن لحىّ الخزاعى أول من وضع الأصنام فى الكعبة ، وقد بلغ فيما تزعم الرواية[2] عنه أربعا وخمسين وثلاثمائة سنة .

فكل هذا وغيره من الأخبار مما يحمل مدلوله على المبالغة فى طول العمر .

على أن العرب أهل بداوة وأمّية ، ولم يدوّنوا تواريخهم بالسنين والشهور إلا بعد

(١) انظر كتاب مروج الذهب للمسعودى ــ الجزء الثانى ــ صفحة ١٧٨ .

(٢) أنظر كتاب مروج الذهب للمسعودى ــ الجزء الثالث ــ صفحة ١١٥ .

أن خالطوا غيرهم من الأمم المتحضرة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وإنما كان كل شعب منهم يؤرخ بما يقع فى حياتهم من حوادث ، يعرفونها باشتهارها لديهم، كما يذكر الطبرى فى تاريخه[1] برواية على بن مجاهد بالسند الشعبى ، إذ يقول :

« أرّخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم عليه السلام إلى بنيان البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل ... ثم أرّخ بنو إسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقت ، فكان كلما خرج قوم من تهامة أرّخوا بمخرجهم ، ومن بقى بتهامة من بنى إسماعيل يؤرخون من خروج سعد، ونهد، وجهينة بنى زيد من تهامة حتى مات كعب بن لؤى ، فأرخوا من موت كعب بن لؤى إلى عام الفيل ، فكان التاريخ من الفيل حتى أرخ عمر بن الخطاب من الهجرة » .

«قال أبو جعفر : وهذا الذى رواه على بن مجاهد فى تاريخ بنى إسماعيل غير بعيد عن الحق ، وذلك أنهم كانوا يؤرخون على أمر معروف يعمل به عامتهم ، وإنما كان المؤرخ منهم يؤرخ بزمان قحة كانت فى ناحية من نواحى بلادهم ، ولزبة أصابتهم ، أو بالعامل كان يكون عليهم ، أو الأمر الحادث فيهم ، فينتشر خبره عندهم .

ويدل على ذلك اختلاف شعرائهم فى تأريخاتهم ، ولو كان لهم تأريخ معروف وأصل معمول به لم يختلف ذلك منهم .

ومن ذلك قول الربيع بن ضبع الفزارىّ :

هَأَنَذَا آمُلُ الْخُلُودَ وَقَدْ ... أَدْرَكَ عَقْلِى وَمَوْلِدِى حُجَرَا

أَبَامْرِئِ الْقَيْسِ هَلْ سَمِعْتَ بِهِ ... هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ طَالَ ذَا عُمُرَا

فأرّخ عُمْرَه بحجر بن عمرو ، أبى امرئ القيس .

وقال نابغة بنى جعدة :

فَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّى فَإِنِّى ... مِنَ الشُّبَّانِ أَزْمَانَ الْخُنَانِ

فجعل النابغة ما أرّخ بزمان علّة كانت فيهم عامة .

(١) الجزء الثانى صفحة ٢٥٣ .

وقال آخر :

وَمَا هِيَ إِلَّا فِي إِزَارٍ وَعِلْقَةٍ مُغَارُ بْنِ هَمَّامٍ عَلَى حَيِّ خَثْعَمَا

فكل واحد من هؤلاء الذين ذكرت تاريخهم فى هذه الأبيات أرّخ تأريخا خاصا على قرب زمان بعضهم من بعض ، وقرب وقت ما أرّخ به من وقت الآخر ، ولو كان لهم تأريخ معروف كما للمسلمين اليوم ولسائر الأمم غيرهم لكانوا لا يتعدونه ، ولكن الأمر عندهم على ما ذكرنا » .

انتهى كلام الطبرى .

لهذا فإن تحديد أعمار المعمرين فى كتاب السجستانى لا يعنى واقع سنىّ حياتهم ، وإنما هو دلالة على طول الحياة فى روايات تناقلتها الأجيال ، وأصابها من النقلة ما أصاب غيرها من أخبار العرب وتواريخهم .

وليس معنى هذا أن الأقدمين كانوا مثلنا فى طول العمر ، فهم بلا شك قوم أوتوا بسطة فى الأجسام ، وطولا فى الأعمار[1] ، وكانوا أطول منا أعمارا ، وكان المعمرون بينهم أطول أعمارا من المعمرين بيننا ، وهو ما تقوم عليه شواهد حياتنا ، ويؤيده الواقع من النظريات العلمية الحديثة ، ولقد بينت البحوث العلمية أن الإنسان قادر على أن يعيش خمسين ومائة سنة إذا عرف كيف يتحكم فى أعصابه فلا يدع التلف يسرى فى جسمه ، باستسلامه لانفعالاته من غضب وحُزن ، وحقد وقلق ، حتى لا يثير غدده فتصبّ فى دمه مواد كياوية ، يؤدى بعضها إلى ضعف الأعضاء وعجزها عن أداء وظيفتها ؛ وما كان العرب فى بيئتهم إلا أهل انبساط ودعة .

***

وإن المستقرى لأخبار المعمّرين المبثوثة فى كتب الأدب العربى يجد أن أبا حاتم السجستانى لم يذكر فى كتابه « المعمرين » طائفة أخرى منهم ، اشتهروا فى الجاهلية بكبر أعمارهم وكانت لهم روايات وأخبار وأشعار عنى بتدوينها المتأخرون عن أبى حاتم ،

(١) راجع مقدمة كتاب الأدب الكبير لابن المقفع .

ومن هؤلاء المعمر « أماناه بن قيس بن الحارث بن شيبان بن العائذ بن معاوية الكندى » . وقد أشار إليه الشاعر مسلم النخعى فى أبيات له[1] ، منها :

أَلَا لَيْتَنِى عُمِّرْتُ يَا أُمَّ خَالِدٍ   كَعُمْرِ أَمَانَاهِ بنِ قَيْسِ بنِ شَيْبَانِ
لَقَدْ عَاشَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ بِمَيِّتٍ   وَأَفْنَى فِئَاماً مِنْ كُهُولٍ وَشُبَّانِ
فَحَلَّتْ بِهِ مِنْ بَعْدِ حَرْسٍ وَحِقْبَةٍ   دُوَيْهِيَّةٌ حَلَّتْ بِنَصْرِ بنِ دَهْمَانِ

وقد عاش أماناه عمرا طويلا فى الجاهلية ، وأدرك الإسلام ، واشترك فى حرب الردّة أيام أبى بكر الصديق .

ومن المعمرين العرب الذين لم يذكرهم أبو حاتم قُبَاث بن أَشْيم الكِنَانِىّ صاحب المثل المعروف « لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُخْشَى بِذِئْبٍ » ويقال إنه شاهد حرب الفيل ، وحارب فى صفوف الكفار يوم بدر ، ثم اعتنق الإسلام ، وصار من الصحابة ، ويروى المؤرخون[2] أنه عاش إلى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان .

ومن المعمرين المشهورين الذين لم يذكرهم أبو حاتم « ضرار بن سعد » صاحب المواقف المشهورة فى القصص الشعبى الجاهلى ، ويحكى المؤرخون عنه حكايات كثيرة ، وأن هو الذى اخترع العصا ليعتكز عليها الشيوخ .

وغير هؤلاء كثيرون تضمّهم كتب الأدب العربى ، ولم يدخلوا فى كتاب أبى حاتم ضمن نطاق مجموعة المعمرين الذين ذكرهم .

ويبدو أن أبا حاتم لم يستهدف فى كتابه جمع أسماء المعمرين وأخبارهم الذين وصلت إليه رواياتهم ، وإنما كان هدفه الأول العناية بتسجيل الحكم والأمثال والشعر مما نطق به المعمرون فى حياتهم المتقدمة ، وأنه إذا أهمل ذكر معمر فى كتابه ، فإنما مردّ ذلك إلى أن أبا حاتم لم يعثر على شىء من النثر أو الشعر لهذا المعمّر مما يمكن أن يعد ثروة أدبية يضيفها السجستانى إلى جملة مختاراته .

* * *

(١) انظر كتاب حماسة البحترى صفحة ٣٠٢ .

(٢) أسد الغابة ـ الجزء الرابع ـ صفحة ١٨٩ . والأمثال للميدانى الجزء الثانى صفحة ١٠٩

وليس من شك فى أن المختارات الأدبية التى ساقها أبو حاتم للمعمرين فى كتابه تمثل فى جملتها لونا ذا أهمية كبيرة فى الأدب العربى ، وأنها تصور ذوقا فنيا خاصا لشعراء وناثرين حفل بهم العصر الجاهلى والعصر الإسلامى ، وكانت لهم أدوار فى التاريخ العربى محمودة فى سيرتهم وبين قومهم ، وأن هؤلاء المعمرين كانوا بأعمارهم أفضل للأشياء اختبارا ، وأن شعرهم الواقعى يزودنا بثروة من الأخيلة الشعرية ، لها قيمتها فى الدلالة وحسن الأداء . وإن كانت أساليب هؤلاء المعمرين لاتضيف جديدا إلى عناصر الأسلوب العربى المعروف .

ويكاد هؤلاء الشعراء المعمرون يتفقون فى تشبيه الشيب بالضيف المكروه ، ثم تختلف أخيلتهم الشعرية فى هذا الضيف ، فيقول بعضهم :

ضَيْفٌ بَغِيضٌ لَا أَرَى لِيَ عُصْرَةً ... مِنْهُ هَرَبْتُ ، فَلَمْ أَجِدْ لِيَ مَهْرَبَا

ويقول آخر :

أَضْحَى لِيَ الشَّيْبُ ضَيْفاً غَيْرَ مُرْتَحِلٍ ... وَلَيْتَهُ كَانَ يُقْرَى الْمَالَ ، فَارْتَحَلَا

لِكُلِّ ضَيْفٍ قِرَاهُ ، أَنْتَ حَاشِمُهُ ... وَمَا قِرَا الشَّيْبِ إِلَّا الْحِلْمُ إِذْ نَزَلَا

وكل هؤلاء المعمرين يتحسرون على أيامهم الخوالى ، ويذكرونها بالأسى والغصة ، ويستعيدون سيرتهم الأولى لأبنائهم وأحفادهم وذويهم وزوجاتهم ، ومنهم من يذكر قوته فى شبابه التى تخافها الأسود ، وضعفه فى مشيبه الذى يخاف به من الثعلب :

وَلَقَدْ أُرَانِي وَالْأُسُودُ تَخَافُنِيَ ... وَأَخَافَنِي مِنْ بَعْدِ ذَاكَ الثَّعْلَبُ

وَإِذَا رَأَيْتَ عَجِيبَةً فَاصْبِرْ لَهَا ... وَالدَّهْرُ قد يَأْتِي بِمَا هُوَ أَعْجَبُ

ويتفاوت هؤلاء المعمرون قوة وضعفا فى إبراز أحوالهم التى صاروا إليها ، من خطو قصير ومشى ضعيف ، وشعرهم فى هذا يصور أحوالهم على أساليب مختلفة من النسج اللفظى والخيال الشعرى .

فيقول بعضهم :

وَمَشَيْتُ بِالْيَدِ قَبْلَ رِجْلٍ خَطْوُهَا ... رَسْفُ الْمُقَيَّدِ تَحْتَ صُلْبٍ أَحْدَبِ

ويقول آخر :

عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا أَنُوءُ ثَلاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي

ويقول ثالث :

تَهَدَّلَتِ الْعَيْنَانِ بَعْدَ طَلَاوَةٍ وَبَعْدَ رِضًا فَأَحْسَبُ الشَّخْصَ رَاكِبَا

وَأُبْعِدُ مَا أَنْكَرْتُ كَيْ أَسْتَبِينَهُ فَأَعْرِفُهُ وَأُنْكِرُ الْمُتَقَارِبَا

وقد كان من عادة العرب فى الجاهلية إذا أسن فيهم كبير أن يتركوه لقًى فى الدار كالمتاع، ويجرون عليه طعامه وشرابه، فإذا رحلوا حملوه ، وإذا حطُّوا ألقوه هملًا دون توقير ، ولذا فقد كثرت الشكوى من المعمرين بهذا الخصوص، فى كتاب أبى حاتم، يعرضون شكواهم على أبنائهم فى ذلة وانكسار استدرارا للعطف ونيلا للرضا والتوقر ، وكانوا فى هذا يألمون أشد الألم نفسيا وعضويا، وقد نهى الإسلام عن هذه العادة المرذولة فى قوله تعالى : « وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا » ودعا لتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطالب المسلم بإكرام ذى الشيبة فى قوله : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا ... »

ويعتبر التراث الشعرى الذى جمعه أبو حاتم السجستانى فى كتابه « المعمرين » من أهم المصادر التاريخية لحياة العرب فى الجاهلية ، ففيه يجد الدارس إشارات لوقعات ومعارك مجهولة ، وإضافات لحقائق تاريخية ، وتصويبات لأسماء مشهورة إلى غير هذا مما يعنى به المؤرخون وأصحاب التراجم .

* * *

وإذا كان كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى أسبق الكتب المعروفة التى تناولت مادتها طرفا من المعمرين وأخبارهم فإن الكتاب يعتبر من ناحية أخرى أوفى الكتب فى الإحاطة بأخبار المعمرين ، بل إنه يمثل الكتاب الأم الذى حذا حذو أبى حاتم فيه المؤلفون الذين جاءوا من بعده ، مثل كتاب « الغرر والدرر » لعلى المرتضى ، وكتاب « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى ، وكتاب «التذكرة»

لمحمد بن الحسن بن حمدان، وكتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » للأبشيهى، وغيرهم أمثال أبى الحجاج يوسف البلوى ، وأبى الفرج بن الجوزى .

فلقد عقد هؤلاء المؤلفون وغيرهم فصولا فى كتبهم ، تناولوا فيها ذكر المعمرين وأخبارهم فى تراجم قصيرة لاتصل إلى عمل أبى حاتم فى وفايته ، وجاء من بعدهم خلف، عنوا بهذا اللون من التبويب فى كتبهم على مر الأجيال ، وكانت لهم مذاهب أخرى فى الجمع لأخبار المعمرين ، وسردها فى طبقات تمثل المعمرين من ذوى المذاهب والطوائف والحرف وغيرهم .

وتعتبر مخطوطة المعمرين الموجودة بمعهد «جوته» بألمانيا من أهم الكتب المصنفة فى أخبار المعمرين المحدثين ، وقد نشر الأديب الدمشقى « إلياس عبده قدسى » صفحات من هذه المخطوطة فى سنة ١٨٨٣ م .

***

ويمثل « كتاب المعمرين » للسجستانى الشطر الكبير من شطرى المخطوط الذى أقوم بنشره، المسجل تحت رقم ٢٠١٤ تاريخ ، بدار الكتب المصرية ؛ أما الشطر الثانى لهذا المخطوط فهو « كتاب الوصايا » لأبى حاتم السجستانى .

وقد جمع أبو حاتم فى هـذا الجزء الثانى جملة من الوصايا المختارة من بين الروايات العربية نسبها إلى قائليها فى العصر الجاهلى ، وفى العصر الإسلامى ، وفى العصر الأموى ؛ وكما أن الوصايا تعتبر لازمة من لوازم المعمرين فقد اعتبر أبو حاتم السجستانى جمع الوصايا فى كتاب لازمة من لوازم جمعه أخبار المعمرين فى كتاب .

ولقد وفق أبو حاتم إلى أبعد حدود التوفيق فى نظم مختاراته على هذين الشطرين ، وفى ترتيب هذا النظم ترتيبا واقعيا ، يساير ظروف الكائنات فى عصور حياتها ، فجعل « كتاب الوصايا » يلى « كتاب المعمرين » ، وأتى فى أخبار الوصايا بما لم يأت به فى أخبار المعمرين ، وقد ضمّن كل هذا نتفا مختارة مما وصلت إليه روايته من أقوال المُوصِين ، الذين أوتوا حظوة فى الدنيا ، ووفرة فى العقول ، واكتسبوا

تجارب كانوا بها ذوى قدرة على الأحكام ، وهم يفضون إلى ذويهم فى أواخر أعمارهم بما لهم وبما عليهم ، يرجون لهم الخير من بعدهم ، ويودعونهم نتائج تجاربهم ، صفوة مختارة من القول فى شئون الدين والدنيا ، يبصرونهم فيها بحياتهم ، وبتليدهم الذى صار إليهم، وقد صاروا إليه .

وإن المنهج الذى سار عليه تصنيف كتاب الوصايا هو نفس المنهج الذى اتبع فى تصنيف كتاب المعمرين ، فلقد روى « أبو روق » هذه الوصايا عن أبى حاتم ، كما روى عنه أخبار المعمرين ؛ وإن القارئ للكتابين يلاحظ أن ذاتية أبى روق فى رواية الوصايا لم يكن لها أثرها الواضح فى روايته أخبار المعمرين ، فلا نكاد نجد لأبى روق تصويبا لما يرويه عن أبى حاتم ، ولا زيادة على ما يذكره ، ولا شرحا أو توضيحا لما يستغلق فهمه من روايته ، كما هو حال أبى روق فى كتاب المعمرين ، بل إن إسناد القول لأبى حاتم فى كتاب الوصايا يكثر إلى حد أنه يذهب بأبى روق وبسيرته ؛ ولعل هذا راجع إلى أصالة هذه الوصايا وإصابتها ، وتواتر رواياتها ، ووضوح عباراتها ومدلولها .

وليس عمل أبى حاتم فى كتاب الوصايا جديدا أو فريدا كعمله فى كتاب المعمرين، فلقد عرفت الوصايا من قديم الزمان لونا من ألوان الأدب العربى ، وصنف لها الرواة المؤلفات ، وعقدت لها فى كتب الأدب الفصول والأبواب ، وقد انفردت بروايتها كتب أخرى سابقة ، مثل كتاب « تاريخ العرب الأوليّة » للأصمعى، وهو كتاب بنيت مباحثه على وصايا قحطان والملوك من أبناء هود ، وكتاب الوصايا لدعبل الخزاعى ، وكتاب وصايا الملوك وأبناء الملوك لأبى الطيب ابن إسحق الوشّاء ، من علماء القرن الثالث الهجرى .

وإن القارئ لهذه الكتب ولغيرها فى وصاياها المختلفة ليجد أنها كلها تصوّر كتابا ذا متن يكاد يكون واحدا ، لولا ذلك التغيير الطفيف فى بعض العبارات ، مما يقتضيه اختلاف الرواة والمؤلفين ، وإن الوصية العربية تكاد تكون واحدة ، وهى

فى عناصرها الأدبية تتكوّن من حكم وأخبار ، وما الحكمة العربية إلا تلك الثمرة الفكرية التى يجتنيها المرء من تفاعل نشاطه فى بيئته الطبيعية والاجتماعية، فيخلص منها إليها فى سلوكه العام ، وينسجها فى المعيار الكلامى ذى الدلالة والإيجاز ، وكلها عند العرب شىء واحد ، فرضته عليهم حياتهم الماشية ؛ وإذا كنا نرى فى بعضها اختلافا فإنما هو الاختلاف فى الأخيلة ، نتيجة للسلطان الفكرى الذى سيطر على العقل العربى بعد ظهور الإسلام ، وانتهج به مناهج أخرى فى الإدراك والتصوير .

وإن الأخبار الخاصة التى تمتاز بها الوصايا ، بعضها من بعض لهى المَعْلم الوحيد الذى يفرق بينها ، وهذه الأخبار كلها تدور حول شئون الدنيا، وما كانت الدنيا وشئونها شيئا مذكورا ، يشغل بال المرء عند لقاء ربه إلا أن يكون الموصى خليفة، أو حاكما، أو ذا جاه فى قومه، فإن لهؤلاء فى وصاياهم مناهج خاصة ، تفيد التاريخ أكثر مما تفيد الأدب ؛ ولقد عنى أبو حاتم بجمع طائفة من هذه الوصايا فى العصر الإسلامى ، وفى العصر الأموى ، واستطاع أن يبرز فى مختاراته منها أذواقا خاصة لبعض الخلفاء ، كان لها أثر فى سلوكهم العام والخاص كما ورد هذا فى وصية عبدالملك بن مروان ، وفى رواية أبى حاتم لها .

وتعتبر الوصايا من الموضوعات الهامة للدراسات النفسية ، وهى تستأهل العناية الكبرى من المختصين ، ففيها تتجلّى بوضوح تفاعلات الخلايا العقلية ، الظاهر منها والباطن ، وتُستبان فى معالمها عناصر الحالة الفكرية الحادة التى تصيب الإنسان عندما يتهيأ له ملك الموت ، وتصبح حياته فى نهايتها قاب قوسين أو أدنى ؛ وهى نتاج فكرى لتفاعلات متناقضة المؤثرات ، تظهر فيها مسالك البشر فى طبائعهم الغريزية، وفى سلوكهم الماشى ؛ ولقد حرص أبو حاتم على أن يقدم فى مختاراته نماذج حيّة متفرقة من هذه الوصايا تمثل ذواتا مختلفة فى عصور متباعدة من التاريخ ، وقد جمعها همّ واحد ، هو الرضا والإيمان .

ولم يخل كتاب المعمرين من ذكر بعض الوصايا التى عرضها أبو حاتم فى سيرة

المعمرين استكمالا لآثارهم ، وجمعا لأقوالهم ، وقد أورد أبو حاتم من هذا كثيرا فيما رواه عن أكثم بن صيفي (صحيفة ١٤ ـ ٢٦) وعن نهد بن زيد في وصاته لبنيه (صحيفة ٢٦).

* * *

وبعد ، فإن المخطوطة التي أقوم بنشرها لأبي حاتم السجستاني تعد من المخطوطات القديمة الحديثة ، فهي قديمة بموضوعها وبمؤلفها ، وحديثة بتاريخ نسخها الذي يرجع إلى أول القرن الحالي ، وقد كتبت المخطوطة بقلم معتاد ، بخط الناسخ محمد شكري المكي ، وبرسم العلامة الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي ، وقد فرغ من كتابتها في شهر رمضان سنة ١٣٢١ هـ ، وتحوي هوامش المخطوطة تقريرات بخط الشيخ الشنقيطي.

وقد جاء في آخر المخطوطة عبارة « قوبل بأصله ، فصح إن شاء الله تعالى ، وكتبه محمد محمود التركزي » وإن هذه العبارة لتدل على أن مكتبات القاهرة كانت تضم المخطوطة الأصلية التي نقلت عنها المخطوطة رقم ٢٠١٤ تاريخ ، المحفوظة بدار الكتب المصرية ، وإن هذه المخطوطة الأصلية قد نقلت من مكانها بعد أن تم نسخها.

ولما كانت مخطوطة كمبريدج رقم Q9, No. 285 قد نشرت في تاريخ لاحق لتاريخ نسخ مخطوطة دار الكتب فإني أرجح أن تكون مخطوطة كمبريدج هي المخطوطة التي كانت بالقاهرة ، وقد حصل عليها المستشرق اليهودي «جولدزهير» الألماني بأي وسيلة ، ثم نقلها من القاهرة بعد أن تم نسخها ومقابلتها ، وذلك لأن كتاب المعمرين والوصايا لأبي حاتم السجستاني المخطوط نسخة وحيدة كما جاء في بروكلمان وفي فهارس المخطوطات العربية الأخرى.

وقد نشر المستشرق اليهودي جولدزهير كتاب المعمرين ، ولم ينشر معه كتاب الوصايا لأبي حاتم ، ومن بعده طبعت مطبعة السعادة بالقاهرة النسخة التي نشرت في ليدن سنة ١٨٩٩ بعد قراءتها على المرحوم أحمد بن الأمين الشنقيطي ، ولم تنشر مطبعة السعادة كتاب الوصايا الذي تضمه مخطوطة دار الكتب مما يدل على اعتماد طبعة القاهرة على طبعة أوربة اعتمادا تاما ، وعلى أن مخطوطة دار الكتب التي أقوم بنشرها ليس لها

صلة ما بالمطبوع من الكتاب ، فهي الكلّ ، وما نشر هو الجزء ، ولا يؤخذ الكل من الجزء ؛ وإنما صلتها التامة قائمة بمخطوطة كمبريدج ، ويعرف السر بينهما الشيخ الشنقيطي ، رحمه الله ، وأثابه على جهده في مقابلة مخطوطة دار الكتب على أصلها .

ويظهر لي أن المستشرق جولدزهير رأى الاكتفاء بنشر كتاب المعمرين لأغراض له، قد أوضحها في مقدّمة كتابه ، وتجمل هذه الأغراض في أنه عني بنشر ذلك اللون الأدبي الذي اختاره أبو حاتم للمعمرين ، وما كان يعنيه نشر كتاب الوصايا الذي عرض لموضوعه جملة وتفصيلا فيما سبق أن نشره من مؤلفات دينية وفقهية .

ولم يتيسر لي وأنا أقوم بدراسة مخطوطة دار الكتب التي أنشرها ، أن أحصل على مصورة الأصل الذي نشر منه المستشرق « جولدزهير » كتاب المعمرين ، حتى أقارن جزءيه ، المعمرين ، والوصايا بهذه المخطوطة وذلك توخّيا لسلامة المتن بمراجعته في الأصول المختلفة ، فما كان لي بدٌّ من الرجوع إلى النسخة المطبوعة في ليدن ، وبخاصة وأن ناشرها قد عني بإبراز المرئيات الخاصة لكلمات المتن في احتمالاتها الممكنة ، لغويا وأسلوبا ، فأصبحت المطبوعة صورة طبق الأصل المنقولة عنه ، وللمستشرقين في هذا السبيل جهد مذكور ومحمود ، وفيما عدا هذا فقد قصرت اهتمامي في نشر هذه المخطوطة على كتب اللغة والآداب ، والمصادر الأولى لكتب التراجم معتمدا على رواياتها في تحقيق النصوص الشعرية والنثرية التي وردت فيها وفي كتابي المعمرين والوصايا ، وقد أثبتّ في الهوامش الفوارق التي تستأهل الذكر من هذه الروايات .

وإنه لما يلفت النظر في الكتب العربية التي تعرض أخبار الأقدمين أن الروايات فيها يختلف بعضها عن بعض تبعا لاختلاف الرواة ، واقتضاء لعامل الرواية الشفوية التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وأيا ما كان وجه الاختلاف فإنه لا يكاد يجاوز اللفظ إلى جوهر الخبر وكنهه ، وتبدو قيمة تحقيق اللفظ واضحة في نشر الكتب اللغوية ذات النصوص المأثورة التي تصلح شواهد على قواعد نحوية أو صرفية ، وتقوم عليها دراسات لغوية فقهية .

وتبلغ جملة صفحات هذه المخطوطة اثنتين وستين ومائةصحيفة ، منها أربع ومائة كتاب المعمرين ، وثمان وخمسون كتاب الوصايا ، وأوراقها ذات مساحة واحدة ٢٤٥ × ١٧٠ مليمترا ، ومسطرتها تسعة عشر سطرا ، فى كل سطر منها تسع كلمات ، وتحوى بعض صفحات المخطوطة تعليقات شروح وتفسيرات بخط الشيخ محمد محمود .

وفى المخطوطة نقص لايدل عليه ترقيمها فى تسلسله ، بين قول المستوغر بن ربيعة:

ينش الماء فى الربلات منها　　نشيش الرضف فى اللبن الوغير

وبين ما بعده « والعافية خير من الواقية » (انظر صحيفة ١٣) ، فإن الصلة معدومة فى المعنى ، وفى النسج اللفظى بين الأسلوبين ، ويرجح فى رأيى أن قدر النقص صحيفة واحدة ، وأن الجزء الناقص هو من سيرة أكثم بن صيفى ، وذلك لنسبة الحكم المذكورة إليه فى بعض المراجع الأخرى ، مثل كتاب الإصابة ، ولذكر سيرته بعد ذلك فى صحيفة ١٤ ، وهذا النقص موجود فى مخطوطة كمبريدج التى نشرها المستشرق جولدزهير كما هو موجود فى مخطوطة دار الكتب ، وهو ما يؤكد مرة أخرى الصلة بين المخطوطتين .

المعادى فى مايو سنة ١٩٦١　　　　عبد المنعم عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ ابو حاتم سهل بن عثمان السجستاني . ذكر ابو عبيدة
وابو اليقظان ومحمد بن سلام الجمحي وغيرهم ان اطول
بني آدم عمراً الخضر عليه السلام . واسمه خضرون بن
قابيل بن آدم عليه السلام وقال ابن اسحق حدثنا اصحابنا
ان آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة جمع بنيه وقال
لهم يا بني ان الله منزل على اهل الارض عذابا فليكن
جسدي معكم بالمغارة حتى اذا هبطتم فابعثوني وادفنوني
بارض الشام . فكان جسده معهم فلما بعث الله تعالى نوحا عليه السلام
ضم ذلك الجسد وارسل الله تعالى الطوفان على الارض فغرقت
الارض زمانا فجاء نوح عليه السلام حتى نزل بابل واوصى بنيه
الثلاثة وهم سام ويافث وحام ان يذهبوا بجسده الى
المكان الذي امرهم ان يدفنوه فيه فقالوا الارض وحشة
ولا انيس فيها ولا نهتدي الطريق ولكن نكف حتى يامن الناس

الصحيفة الأولى من مخطوطة «كتاب المعمرين»

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابُ الوصايا عن أبي حاتم (وأولُ الوصايا).

أخبرنا ابو روق قال قال ابو حاتم قالوا وكان ملك من

ملوك اليمن يقال له الحارث بن عمرو الكندي بلغه عن ابنة

لعوف الكندي جمال وكمال وهو الذي يقال له لا حُرَّ

بوادي عوف ... جمالاً وكمالاً فبعث الى امرأة من قومها يقال

لها عصام فقال لها انه بلغني عن بنت عوف جمال وكمال

فاذهبي فاعلمي لي علمها فانطلقت حتى دخلت على امها

وهي أمامة بنت الحارث فأخبرتها خبر ما جاءت له وإذا

أمها كأنها خاذل من الظباء وحولها بنات لها كانهن

شوادن الغزلان فارسلت الى ابنتها فقالت يا بُنيّة إن

هذه خالتك أتتك لتنظر الى بعض شأنك فاخرجي إليها

ولا تستتري عنها بشيء وناطقيها فيما استنطقتك فيه

فدخلت عليها ثم خرجت من عندها وهي تقول (ترك الخداع

من كشف القناع) فأرسلتها مثلا فلما جاءت الى الحارث

قال ما وراءك يا عصام قالت أيها الملك (صرّح المحض

الصحيفة الأولى من مخطوطة « كتاب الوصايا »

فاذا فيه عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك من بعده فسلم وأَلَه ثم رضوا قال ابن عياش واخبرنا الصلت مولى لبني امية قال ثم اقبل رجاء الى عمر بن عبد العزيز وهو في المقصورة فاخذ بيده فجعل يتلكأ فقال له رجاء ان الذي تصنع شر فقال عمر ان هذا الامر ما سألته الله في صلاة ولا سر ولا علانية فلما انصرف من الجنازة وصلى على سليمان قال لانظرت ما يصنع وكتب في الافاق برد المظالم وعزل اهل بيته عن الاعمال واظهر عزلهم ورد مظالمهم وكان مقامه بدابق شهرين ثم انصرف الى منزله بدير سمعان فلم يزل بها الى ان توفي رحمة الله عليه

تم كتاب الوصايا لابي حاتم رحمه الله تعالى

قوبل بأصله فصح ان شاء الله تعالى

كتبه محمود الترکزي لطف به

قدم على يد محمد شكري الملكي رحمه الله

١٢٩٦ برسم علامة المشرقية والمغربية مولانا الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي حفظه الله علاه بمنه وكرمه آمين

الصحيفة الأخيرة من كتاب الوصايا ـ رقم ٢٠١٤ تاريخ ـ بدار الكتب المصرية ـ بالقاهرة